مطبوعات حديثة

مبحث

« في فلسفة ابن سينا في ما وراء الطبيعة »
تأليف السيد جميل صليبا الحائز على لقب دكتور في الفلسفة وشهادة التربية والمأذون بالحقوق من جامعة باريز ، طبع في مطبعة لي برس اونيفرسيتير دي فرانس في باريز

للغرب على العرب فضل عظيم أوضحه الاستاذ السيد محمد كرد علي في محاضرته التي القاها في ردهة المجمع العلمي الدمشقي وفي المدرسة الكبرى في القاهرة عام ١٩٢٧ . فان ما حفظه الغربيون في خزائنهم من المخطوطات العربية التي تعد بالالوف المؤلفة وما نشره علماء المشرقيات منهم من المؤلفات العربية القيمة في جميع الموضوعات العلمية قد حفظت للعرب تاريخ حضارتهم ومدنيتهم الرفيعة التي لولاها لعد اعداؤهم وقائعهم وفتوحاتهم من الأعمال الوحشية المجردة عن النظام المدني والفكرة السياسية . ومع هذا فان من علماء الغرب الأعلام من ينكر على العرب النبوغ و يسلبهم خاصة الابتكار والإبداع في جل العلوم التي أخذها الغرب عنهم كالطب والهيأة والفلسفة وغيرها حاصراً ميزتهم في جودة النقل والتقليد فحسب .

واذا ضربنا الصفح عن العوامل النفسية الناشئة عن البيئة والتلقينات العلمية والمذهبية الاولى نجد ان هذا الحكم يمت الى أسباب : أهمها ان علماء العرب لم ينخلوا لانفسهم ما اخذوه عن غيرهم انما نسبوا كل شيء الى صاحبه فجاءت افكارهم الخاصة عرضاً في الشروح والذيول فلم ينتبه اليها لا سيما بعد ان نقلت الاصول اليونانية الى اللغات الاوربية واهمل الرجوع الى المؤلفات العربية التي اصبح فهمها متعذراً على رائدها لغموض تعابيرها وصعوبة تراكيبها . ومنها سوء الترجمة التي كثيراً ما يجعل الصحيح فاسداً والجلي غامضاً .

ومنها الضعف باللغة العربية التي يحول دون مطالعة الاصول الى غير ذلك من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العوامل التي بخست كثيراً من علماء العرب حقهم من النبوغ والابداع في العلوم التي اشتهروا بها كابن سينا في الفلسفة والطب مثلاً فان من علماء هذين الفنين من الغربيين من انكروا عليه النبوغ فيهما وعدوا كل ما كتبه في ابحاثهما شرحاً لأقوال ارسطو مجرداً عن كل رأي خاص . ولعمري ليس في هذا الحكم الجائر غضاضة على الحاكم لان الفتوى كما يقال على قدر النص . على ان هذا الحكم لا يقع على شخص ابن سينا الذي طوته القرون فلا سبيل له ولا اليه بل يقع على الامة العربية التي لم تزل حية بفضل ماتركه لها اولئك الاجداد من ذكرى مجد اثيل وحضارة فائقة . وهو لعمر الحق ضربة مؤلمة من الواجب عليها ردها بالحجة القاطعة والبرهان الساطع ومن احرى باظهار مجد السلف من الشبيبة الناهضة من الخلف . وقد سبق لي ان قرظت في هذه المجلة أطروحة الزميل الطبيب السيد يوسف حريز التي أبان فيها عما كان للطب العربي من التأثير في نشوء الطب الفرنسي وها انا أقدم لقرائها اليوم أطروحة السيد جميل صليبا المأذون بالحقوق والحائز لقب دكتور بالفلسفة وشهادة التربية من جامعة باريس التي افصح فيها عن فلسفة ابن سينا فيما وراء الطبيعة واوضح ما لهذا الحكيم العربي من الآراء المبتكرة والميزات العلمية الخاصة وذلك في مقدمة ومطلبين :

اما المقدمة فتعرب عن موضوع الكتاب وهو فلسفة ابن سينا فيما وراء الطبيعة وعن مصادره واهمها الشفاء والنجاة ومنطق الشرقيين والرسالة في الحكمة الطبيعية وجامع البدائع وغيرها من المصادر الاساسية . وقد نهج المؤلف في تأليفه طريقة التحليل والتاريخ والمناظرة ليتسنى له الوصول الى ضالته وهي اظهار حقيقة ابن سينا جلية وتجريدها مما يحيق بها من الحقائق التاريخية الماضية والمعاصرة لها .

ثم قسم المؤلف المبحث الاول فصلين درس في الاول منهما الفلسفة العربية او بالحري الاسلامية بصورة عامة فقال ان العرب كانت تقسم قبل الاسلام الى معطلين ومحصلين . اما بعد الاسلام فتفرقوا فرقاً كثيرة بعامل الاختلاف في تأويل احكام بعض آيات القرآن المتعلقة بالقضاء والقدر لان منها مايجعل الانسان حراً مخيراً ومنها ما يجعله مقيداً مسيراً . واهم هذه الفرق المعتزلة ويدعون ايضاً القدرية بين واصحاب العدل ومذهبهم ان الله عالم بذاته وقادر بذاته وليس بالعلم والقدرة وان الانسان قدير على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عمله مسؤول عنه ومنها الجبريون وهم القائلون بان الانسان مسير وعمله مخلوق ومنها السفسطائية والباطنية والاشعرية والحشوية الخ . ولكل من هذه الفرق مذهب فلسفي خاص جدير بالاهتمام والاعتبار في تاريخ الفلسفة العربية العامة .

ثم رد على قول رينان بان فلسفة العرب هي فلسفة ارسطو وأوضح الاسباب التي كانت تحمل الفلاسفة من العرب على حفظ التآليف اليونانية وتكرار قراءتها وأهمها غموض التعبير وسوء الترجمة وليس الاعجاب كما قال رينان . ورد على قوله ايضاً ان الفلاسفة الذين ظهروا في الاسلام ليسوا عرباً وانه لا يوجد فلسفة عربية ... فذكر الكندي وابن رشد بانهم من صميم العرب وانه من الخطإ النظر الى الفلسفة العربية من خلال الفلسفة اليونانية لان فلسفة العرب كانت ترمي الى التأليف ما بين الفلسفة القديمة والدين . وهل يستطيع احد انكار وجود فلسفة اسلامية ابتدعها العقل العربي . فان الفقه وعلم الكلام وجدا عند العرب قبل دخول الفلسفة اليونانية اليهم . ثم أفاض المؤلف في البحث في النهضة العربية والأعمال الجلى التي أتاها العرب في سائر العلوم على اختلاف موضوعاتها وانهم كانوا أساتذة الغرب قروناً متعددة وفضلوا اليونان في جميع الفنون التي درسوها . وقد ختم المؤلف هذا الفصل بالدعوة الى عدم الحكم على شعب بمجرد النظر الى نقطة واحدة من وجوه تاريخه فلا يجوز ان يحكم على الاسلام بالمسلمين اليوم . فان القرآن ليس عدواً للعلم والفلسفة (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ... آيات ... أحاديث) انما هو الباعث على ازدهار العلم في بدء الاسلام وصدره . اما السبب في انحطاط العلوم في الاسلام وبطلانها فيعزوه المؤلف الى ضعف العرب وخروج السلطان من ايديهم واستيلاء الأعاجم على الملك . فان الاسلام رعى العلم في عهد سيطرة العرب وعاداه في ظل الأعاجم وعلى ذلك فليس الاسلام عدو للعلم بل المسلمون اعداؤه .

اما الفصل الثاني من المطلب الاول فقد أوضح فيه المؤلف مذهب المتكلمين . فقال : ان غاية الكلام إثبات ان العالم حادث وان الجوهر مخلوق لاثبات وجود الخالق . لان كل ماهو حادث يحتاج لمحدث وكل مخلوق يحتاج لخالق . وقد خالفهم ابن سينا في قوله : « ان علة الحاجة الى الواجب هي الإمكان لا الحدوث » وقد بنى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتكلمون نظر باتهم على دعائم أهمها ان لا واسطة بين الوجود والعدم وان وجود الشيء وماهيته واحد في الإمكان والوجوب خلافاً لقول الفلاسفة ان الوجود يختلف عن الماهية في الإمكان ويتحد معها في الوجوب . وقد قسم المتكلمون الموجودات الى حادثة وقديمة وقالوا بان الوجوب والإمكان ليسا حقيقيين ولا هما غير حقيقيين انما هما من مصورانتا الذهنية . في حين ان فكرة الوجوب والإمكان هي دعامة أقوال الفلاسفة ....

وقد قال المتكلمون ان الأشياء قائمة بجواهر فردية متجانسة وغير متجزئة لا يختلف بعضها عن البعض الآخر الا بالاعراض . وانه لا يوجد ماهية لهذه الجواهر وان الاعراض بسيطة لا تلاشي وتحدث آنياً بخلق الله . وأقوى حجج المتكلمين على إثبات وجود الله قولهم : يتكون الكون من جواهر ومن أعراض ولا يخلو جوهر من عرض او أعراض . وبما ان الأعراض تولد جميعها فمن اللازم ان تكون الجواهر التي تحملها مولودة . لان كل ما يتصل بالمولودات و يكون لازماً لها فهو مولود . فالعالم جميعه اذاً مولود . وله موجد .

وخلاصة هذا المذهب ان الحدوث يسود الطبيعة وان الطبيعة ليست في كليتها الا إمكاناً . ولا توجد الا بالواجب لذاته ذي القدرة والعلم المطلقين .

ثم انتقل المؤلف الى المطلب الثاني فقسمه ستة فصول اتى في الاول منها على أقوال ابن سينا العامة فيما وراء الطبيعة وخلاصتها ان غاية ما وراء الطبيعة معرفة المبدأ الاول اي التوصل الى اثبات وجود الله . وان الجوهر هو الشيء القائم بنفسه وجوباً وليس محمولاً بآخر وان العرض هو ما قام بجوهر وان الجوهر يحمل العرض والعرض ايضاً يحمل عرضاً آخر وذلك خلافاً لقول المتكلمين (واما انه هل يكون عرض في عرض فليس بمستنكر) وان القدرة والفعل والوحدة والكثرة والاول والحادث والعلة والمعلول هي اعراض بالنسبة للوجود . ثم بحث بالمادة والصورة فقال بان ليس احدهما سبباً للآخر وخص الاسباب باربعة : المادة . والصورة . والغاية والفاعلية . ومما يجدر الانتباه اليه قوله : ان السبب الذاتي الواحد لا يحدث الا علة خاصة واحدة لانه لا يخرج من الواحد الا واحد على انه توصل فيما بعد الى البرهان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على ان التعدد يصدر عن الواحد وذلك باعتبارات عمومية في الممكن والواجب .

اما الفصل الثاني فقد درس فيه الماهيـة والوجود فقال ان فلسفة ابن سينا تمتاز بقضيتين أساسيتين احداهما التمييز ما بين الماهية والوجود . والثانية ما بين الممكن والواجب . وقد درس في هذا الفصل القضية الاولى واوضح بكل جلاء التبـاين الشديد الذي يفصل ما بين ابن سينا وارسطو . ومما هو جدير بالذكر ان هذا التباين لا يظهر جلياً في كتب ابن سينا كخلاف مقصود قائم بنفسه انما يستنبط من مجموع آرائه الفلسفية المبعثرة في شروحه وفصول مؤلفاته بصورة يتعذر معها على كل قارئ لمّ شعثها . وتشييد كيانها . وهذا ما حمل رينان وغيره على تجريد ابن سينا من ميزة الابداع والابتكار وجعله نسخة ثانية لارسطو . وللمؤلف فضل كبير في جمعه هذه الآراء الخاصة وتشييدها بناءً متناسقاً تتمثل فلسفة ابن سينا في مجموعه جلية ذات هندسة عربية خاصة وبنيان مبتكر مرصوص .

وخلاصة قول ابن سينا في التمييز ما بين الماهية والوجود ان الماهية هي المقول في جواب ماهو وان الوجود صفة لازمة لها تصحبها ولا تكون جزءًا منها . وان الحد لا ينطبق الا على المركبات اما الاجسام البسيطة فلا تحد لانها مجردة عن الجنس والفصل . وبما ان الله بسيط فلا يمكن حده . هذا وقد تكون ماهيـة الشيء علة احدى صفاته ولكن وجوده لا يحصل من حادث ماهيته لان كل علة سابقة لمعلولها في الوجود قبل ان يوجد . فالماهية والحالة هذه تتضمن الوجود بالامكان فحسب وشروطها تختلف عن شروط الوجود . وبما ان الماهية لا تتضمن الوجود وجوباً فماذا تكون اذاً ؟ هل هي صورة ذهنية مجردة عن القوام ؟ اذا صح ذلك تصبح فلسفة ابن سينا صورية محضة خلواً من القوام الحقيقي . وقد قال بذلك مونك خطأً لان ابن سينا يقول ان الكليات توجد في عقولنا لا كمسميات لا حقيقة لها بل كمفهوم معقول ذي صورة محسوسة وان الصور المعقولة الموجودة في الذهن توجد بالفعل في العقل الفعال اولاً وفي المحسوسات ثانياً . . .

اما بحث ابن سينا في الممكن والواجب فقد اوضحه المؤلف في الفصل الثالث وخلاصته ان كل شيء وجوده غير ماهيته يوجد بموجود ماهيته لا تختلف عن وجوده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذا يستنتج ان الموجودات قسمان : موجود ممكن وموجود واجب . وعلى هذا فان الامكان والوجوب ليسا كما يقول المتكلمون مصورات ذهنية بل هما حقيقيان . اما مميزاتهما فهي :

الوجود الممكن هو الذي له علة اما الوجود الواجب فهو ماليس له علة وكل ما هو ممكن بماهيته لا يوجد ولا يعدم الا بعلة . لان ميل هذا الشيء متساوٍ للعدم والوجود وعلى ذلك لا يمكنه الوجود الا اذا اصبح واجباً بغيره . وبما ان الممكن لا يتضمن علة وجوده فمن الضروري قبول وجود موجود منزه عن الامكان ذي وجود واجب توجد به جميع الممكنات دون ان يكون منها . وهو الموجود الاول اي الله . فالعالم ممكن وكل ممكن حادث وكل حادث يستلزم علة اولى تحدثه وهي الله .

وبعد ان اثبت ابن سينا وجود الله بحث في صفاته . فمن كون الله واجب الوجود بذاته وهو المبدأ الاول يستنتج انه مجرد عن كل امكان . وبما ان الامكان من طبيعة المادة فالله مجرد عن المادة وعلائقها فهو اذاً بسيط وماهيته مجردة عن كل العناصر المركبة التي وجودها يتوقف على اتحاد اجزائها السابقة بوجودها لها والمختلفة بماهيتها عنها . وعلى ذلك فما من موجود مركب ذي وجود واجب بذاته .

فواجب الوجود ليس والحالة هذه جسماً لان الجسم ينقسم الى اجزاء وكل ما هو مركب لا يكون واجباً بذاته . وهو ليس ايضاً هيولى جسمية ولا صورة جسمية ولا هيولى معقولة لصورة معقولة . ولا صورة معقولة لجسم معقول . انما بساطة واجب الوجود نتيجة لازمة لوحدته اللازمة لوجوبه المطلق لانه لا يوجد غير موجود واحد واجب بنفسه وهو العلة الاولى والمبدأ الاول لكل الممكنات فوحدته واجبة لانه اذا فرضنا وجود موجودين كل منهما وجب بالآخر يصبح كل منهما ممكناً بذاته . ومن وجوبه ووحدته يتبين انه منزه عن النظير والضد والشريك . وبالنظر لكونه مجرداً عن الجنس والفصل والماهية فليس له حد ولا علة ولا كمية ولا كيفية ولا مكان ولا زمان . وعلى هذا لا يمكن تعريفه بالمقولات . وهو الكمال وهو الخير وهو الحق وهو العقل اذا عقل اوجد وهو يعلم الكليات والجزئيات لان معرفة العلة تستلزم معرفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعلول استنتاجاً . وهذه الصفات كلها سلبية ما عدا صفة الوجود ولا تحدث تعدداً في ذاته .

وبعد ان اوضح المؤلف فلسفة ابن سينا في وجود واجب الوجود وفي صفاته تكلم في الفصل الرابع في نظريته في علاقة العالم به وهي نظرية الفيض وأسسها القواعد الثلاث الآتية :

(١) لا يخرج من الواحد الا واحد .

(٢) العقل في الجواهر المتفرقة معناه الإبداع .

(٣) كل ما هو ليس واجب بذاته هو ممكن بنفسه وواجب بغيره .

فان واجب الوجود عقل ذاته فأبدع العقل الاول اي الفلك الاول وهذا العقل الاول ممكن بذاته واجب بواجب الوجود مما يجعل له صفتين و يسوغ صدور المتعدد عن الواحد . ثم ان هذا العقل الاول عقل واجب الوجود فأبدع العقل الثاني وعقل ذاته من حيث انه واجب بالعلة الاولى فأبدع نفس الفلك المحيط ومن حيث انه ممكن بذاته فأبدع جسم هذا الفلك .

ومما تقدم يتبين انه ينشأ من العقل الاول ثلاثة موجودات : اولها العقل الثاني ثم نفس الفلك المحيط اي صورته ثم جسم هذا الفلك اي مادته . وكذلك ينشأ من العقل الثاني ثلاثة موجودات كالاولى وهلم جراً الى ان نصل الى العقل العاشر الاخير الحاكم على عالمنا القمري السفلي و يسمى العقل الفعال الذي يقف عنده الفيض فلا يبدع غيره كالعقول المتقدمة لانه لا يعقل ما فوقه .

ثم درس المؤلف في الفصل الخامس اقوال ابن سينا في علاقة واجب الوجود بالعالم وفي الفصل السادس نظريته في النفس فقال :

ليس الفيض فعل عقل ومعرفة فحسب بل هو فعل ارادة ايضاً فان الاول راض بفيضان الكل عنه . وان الخير والكمال في الموجودات متناسب مع مقدار اتصالها بالواجب بذاته . على ان الخير مقتضى بالذات والشر مقتضى بالعرض وكل بقدر . وان العالم لا يكون ممكناً وحادثاً الا بالنسبة لذاته اما بالنسبة لعلته فهو واجب وعلى ذلك يكون الجبر سائداً فيه . فالانسان ليس حراً ولا مجبراً انما يخضع للقدر بدرجة تملكه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

افعاله اما النفس فليست سابقة الجسد بالزمن لانها تخلق معه (خلافاً لقول افلاطون) . وهي ثلاثة انواع : نباتيـة وحيوانية او حساسة وانسانية او مفكرة . وهذه الاخيرة وحدها ازلية لانهـا تقبل المعقولات وتصبح عقلاً بالفعل (خلافاً لقول ارسطو) . اما العقل فهو قوة النفس التي تحول صور المحسوسات الى صور ذهنية بنور العقل الفعال ومن هذا يتضح ان المعرفة لا تقوم بالحس فقط . فاذا ارادت النفس ان تفعل شيئاً تتجه نحو العقل الفعال فيحدث فيها الصور المعقولة اللازمة لمعرفته . اما الحواس فعملها دفع النفس الى العقل الفعال . وعلى هذا فليس العلم فطرياً في النفس .

وقد اختتم المؤلف كتابه بذيل جمع فيه الالفاظ الفنية الواردة في الكتاب مع ما يقابلها في العربية . وقد رتبها على حروف الهجاء العربية على انه كان من اللازم ترتيبها على حروف الهجاء الفرنسية تسهيلاً لطلبها لان لغة الكتاب الفرنسية .

* * *

ومما تقدم يتضح أن ابن سينا ليس كما قال رينان نسخة لارسطو بل هو يفترق عنه في مواضع كثيرة وهو اقرب الى افلاطون منه لارسطو مما يعرب عن قلة المام رينان بفلسفة ابن سينا وقذفه القول جزافاً .

ولا يسعنا في الختام الا ان نشكر للدكتور السيد جميل صليبا اريحيته وجهوده في دفاعه عن هذا الفيلسوف العربي العظيم الذي قامت على مؤلفاته النهضة العلمية الأخيرة في جميع انحاء العالم .

عضو المجمع العلمي
الدكتور اسعد الحكيم